الترجمة ودورها فى التحول الحضارى

إعـــداد

الدكتور/ حامد طاهر(*)

الحضارة عبارة عن نهضة مركبة تشمل الجوانب المادية والمعنوية وتنتسب غالباً إلى بلد أو شعب معين مثل الحضارة الصينية القديمة والهندية والمصرية القديمة، والآشورية، والبابلية، والرومانية- والحالة الوحيدة التى انتسبت فيها إلى دين هى حالة الحضارة الإسلامية. أما الحضارة الغربية المعاصرة فإنها تنتمى إلى عدة شعوب أوربية بالإضافة إلى مساهمة الولايات المتحدة الامريكية فيها. ومن أهم خصائص الحضارات قدرتها الكبيرة على: الانتشار، والتأثير، وتغيير أسلوب حياة الناس فى الأماكن التى تصل إليها. وبهذا يمكن التمييز بسهولة بين (الحضارة) و(الثقافة) التى هى عبارة عن مجموعة صور ذهنية وسلوكيات مستمرة دائماً من البيئة المحلية، ومرتبطة بتاريخ جماعة معينة ومن أهم سمات الثقافة: الخصوصية، والتأثير الذهنى فقط، وقد لا ينتج عنها أى تغيير.

ومن المقرر أن الحضارات تمر بأدوار معينة، تبدأ بالنمو، ثم الازدهار وبعد ذلك الضعف والموت: جرت هذه الأدوار على كل الحضارات التى سبق ذكرها، فلم نعد نسمع عن الحضارة الرومانية مثلاً، أو عن الحضارة الصينية القديمة، وكذلك المصرية، اللهم إلا بعض آثار متبقية يشاهدها السائحون، ويبحثها العلماء فى المعامل والجامعات.

(*) عميد كلية دار العلوم جامعة القاهرة.

الحضارة الوحيدة التى يعمل أصحابها على استعادة مجدها هى الحضارة الإسلامية. ولعل السبب يرجع فى ذلك إلى قيامها على دين موحي به، وعلى عقيدة يؤمن بها حتى اليوم أعداد كبيرة من البشر، وطائفة لايستهان بها من الشعوب.

وإذا حاولنا أن نقف على أسباب نشأة الحضارة الإسلامية وجدناها ترجع فى المقام الأول إلى اعتمادها على الدين الإسلامى، الذى لا يشتمل فقط على عقيدة وشعائر، وإنما يحتوى على منظومة متكاملة من الأخلاق، ونظام تشريعى، يغطى كل جوانب الحياة بالنسبة للأفراد والمجتمعات.

وقد اشتركت عدة شعوب فى صنع الحضارة الإسلامية: فبالإضافة إلى العرب، أسهم الفرس والأتراك، والأكراد، والأفغان، والهنود، والبربر، والأفارقة، فى إضافة عناصر مهمة إلى هذه الحضارة.

بل لإن الإسلام، بطبيعته السمحة، قد ختم بين جناحيه إصحاب الأديان الأخرى من مسيحيين ويهود وصابئة، وقد وجد هؤلاء أمامهم الفرصة كاملة للإسهام فى وضع لمسة هنا ولمسة هناك إلى الحضارة الإسلامية.

وقد كان من أهم عوامل نشأة الحضارة الإسلامية وازدهارها معا التمسك بدعوة هذا الدين الحنيف إلى التعلم، والبحث عن المعرفة، والأستفادة من تجارب الآخرين (اطلبوا العلم ولو فى الصين) و(اطلبوا العلم من المهد الى اللحد).. وتتوالى وصايا الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالحث على طلب العلم فيرفعه إلى مقام الجهاد فى سبيل الله (من خرج فى طلب العلم فهذا فى سبيل الله حتى يرجع) و(من سلك طريقا إلى العلم سلك الله به طريقا إلى الجنة).. والرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – يجعل فداء بعض الأسرى فى بدر أن يقوم الواحد منهم بتعليم عشرة من أبناء المسلمين القراءة

والكتابة، وبذلك يحقق قول الله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم﴾.

بل انه يطلب من زيد بن ثابت أن يتعلم اللغة العبرية حتى يتمكن من الترجمة له عن أحبار اليهود فى المدينة.

وقد سار صحابة الرسول، رضوان الله عليهم، على نفس النهج. فشجعوا العلم، واحترموا أهله، وأخذوا بخبرة من كل من لديه منها نصيب. فعمر بن الخطاب يقتبس من الفرس نظام الجيش، الذى يطلق عليه (ديوان الجندية) ويظل التعامل فى ادارة هذا الديوان باللغة الفارسية، حتى يقوم عبدالملك بن مروان بتعريبه.

ليس فقط فى الإسلام: الدعوة إلى التعلم والعلم التى هى من أهم أسس قيام الحضارة، وأنما أيضا: الدعوة إلى العمل النافع، وضرورة تعمير الأرض، وكذلك الدعوة إلى السلام، وتجنب الحرب إلا لضرورة ملحة، وأخيراً الدعوة إلى التسامح مع الآخرين، والاستفادة من تجاربهم (الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق بها) وهذه الدعوات كلها تعد من الركائز الأساسية لقيام حضارة عالمية ذات تأثير مباشر فى حياة الشعوب.

وبمجرد استقرار الدولة العباسية، عقب الفتوحات التى قامت بمعظمها الدولة الأموية، تفرغ المسلمون للبناء الحضارى الذى كان بناء مدينة بغداد رمزاً له.. بني المنصور بغداد فما أسرع أن تألقت بعد القسطنطينية والأسكندرية.. وبدأت نهضة عمرانية واسعة وتحولت الحياة إلى المدنية والأستقرار، وشاع حب الفنون والآداب، وكان على المسلمين أن يستعينوا بالعلوم التى تنهض بها الحضارة وتستمر، فلجأوا إلى الشعوب التى لديها هذه العلوم: الهند، وبلاد فارس وبلاد اليونان (الإغريق).. وبذلوا جهدا رائعا فى

استقدام أهم المؤلفات من هذه البلاد، ثـم قـاموا بعـد ذلـك بترجمتهـا إلـى اللغـة العربية.

وهنا يبرز اسم الخليفة (المأمون) الذى أنشأ (بيـت الحكمـة) وهـو عبـارة عن مؤسسة متكاملة للترجمة تحت إشراف الخليفة نفسه..

كانت عبارة عن خلية نحل، يقوم البعض فيها بالتحقق من الكتب الوافدة، والبعض الآخر بترجمتها، والبعض الثالث بمراجعتهـا، ومما يـروى فـى هـذا الصدد أن المكافأة كانت عبارة عن وزن الكتاب المترجم ذهباً.

من أهم ماترجمه المسلمون كتب الطب، والفلك، والكيميـاء، والحيـوان، والفلسفة، وخاصة علم المنطق.. الذى أفـادهم كثيرا فـى دفـع حركـة التـأليف خطوات إلى الأمام.

لم يترجم المسلمون الأدب الأغريقى بسبب ما وجـدوه فيـه مـن حكايـات يتعلق بتعدد الألهة لدى الإغريق. وليس هذا أمـراً معيباً. فالترجمـة ينبغـى أن تقتصر على ما تحتاجه الأمة. وقد كان لدى الأمة الإسـلامية آدابهـا المتمشـية مع تعاليم الإسلام، ولديها حكاياتها الأدبية والشعبية، ولدى العرب الشعر الذى كان – ومازال أثيراً لديهم.

المهم أن حركة الترجمة فى العصر العباسـى تعتبر مـن أهـم المقومـات التى استمرت بها حضارة العرب، وهى التى حركـت ودفعـت عمليـة التـأليف لدى المسلمين.

فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى محـور آخـر فـى تـاريخ الحضـارات وهـو بدايـة النهضـة الأوربية سوف نجدها تعتمد اعتماداً كبـيراً علـى الترجمـة: والترجمـة فى هذه المرة ستكون من اللغـة العربيـة إلـى اللغـة اللاتينيـة: حـدث ذلـك مـن خلال عـدة طـرق، أهمهـا: أسبانيا المسلمة أو الأندلس. والثـابت تاريخيـاً أن الحضـارة الأندلسية كـانت معينـاً ضخمـاً لأوربـا، قـام بتخليصهـا مـن مرحلـة

العصور الوسطى المظلمة التى مرت بها. وسوف نجد حينئذ أن اليهود هم الذين يقومون بدور المترجمين من اللغة العربية التى كانوا يجيدونها بسبب اقامتهم بين المسلمين وبين اللغة المنتشرة فى أوربا وهى اللغة اللاتينية. العديد من المؤلفات العربية انتقلت إلى أوربا فى مجالات الطب والفلك والملاحة وكذلك الشعر والأدب... وسوف يحدث التأثير بسرعة كما سوف يحدث التحول الحضارى بسبب هذه الحركة الخاصة بالترجمة.

(كتاب القانون فى الطب لابن سينا ظل يدرس فى الجامعات الأوربية حتى بداية القرن الثامن عشر الميلادى. وشروح ابن رشد على أرسطو كان لها أكبر الأثر فى إحداث نهضة فكرية كبرى فى أوربا كلها).

إن الحضارة الغربية الحديثة- منذ بدأت حركة الترجمة من المؤلفات العربية- لم تتوقف حتى اليوم. والملاحظ أن هذه الحركة ثابتة الخطى فالنقل بين الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والأسبانية.. وكذلك الروسية يسير بمعدل واسع جداً. ولا يكاد يصدر كتاب بالإنجليزية إلا ويترجم على الفور إلى اللغات الأخرى، والعكس صحيح. إن الحضارة تدرك جيدا أن إستيعاب مالدى الشعوب التى تضمها أمر ضرورى، وعلى الرغم من مدى تقدم هذه الحضارة إلا أنها لاتستغنى مطلقاً عن الاستفادة من كل تجربة بشرية، وهذا مايعطيها القوة، ويمدها دائما بالحيوية (الاتحاد السوفيتى كان يترجم الكتاب الذى يصدر فى دول أوربا الغربية فيما لا يزيد عن ثلاث ساعات، بحيث تصدر ترجمتة فى اليوم التالى مباشرة ولم يكن كما هو معروف عنه- يعترف بحق التأليف أو حق النشر) والصين تشترى حق ترجمة دائرة المعارف البريطانية وتقوم بترجمتها، وأوربا نفسها تقوم بترجمة بعض المؤلفات العربية الحديثة والمعاصرة إليها.

وعندما نصل إلى نهضة العرب والمسلمين فى العصر الحديث (الذى يؤرخ له ببداية القرن الثامن عشر الميلادى مع حملة بونابرت على مصر والشام) سوف نلاحظ – مرة ثالثة – أن الترجمة تقوم بدور رئيسى فى هذه النهضة. يبدأ محمد على بإرسال مبعوثين إلى أوربا لنقل العلم الغربى المتقدم فى المجالات التى يحتاجها بالفعل، ويعقب ذلك حركة ترجمة واسعة يقودها رفاعة الطهطاوى (الذى ترجم مع تلاميذه من مدرسة الألسن حوالى ألفى كتاب) وهنا أمر هام. فإن رفاعة وتلاميذه لم يترجموا من الكتب الغربية (وخاصة الفرنسية) إلا ما لم يكن موجودا فى اللغة العربية ذاتها. والدليل على ذلك أنهم لم يترجموا شيئا عن الأديان أو الأخلاق، وإنما كان همهم هو ترجمة العلوم والفنون الحديثة التى كانت وراء النهضة الأوربية أو إحدى ثمراتها. ودليل آخر أن رفاعة نفسه قد ألف كتبا خاصة فى مجال التربية والتهذيب الخلقى مستمدة أساساً من التاريخ الإسلامى والبيئة الإسلامية، ومن ذلك: المرشد الأمين فى تعليم البنات والبنين وكذلك كتابه عن سيرة الرسول – صلى الله عليه وسلم –.

وقد كان من الممكن لحركة الترجمة التى ظهرت فى مصر خلال القرن الماضى أن تأتى أطيب الثمار، خاصة وأنها كانت تجرى تحت إشراف الدولة، وبدعم كامل منها– غير أن الظروف لم تكن متاحة تماما لتحقيق ذلك. فقد جاء بعد محمد على أبناؤه وأحفاده، والكثير منهم كان ضعيفا، ولم يكن لديه طموحات الجد الكبير، مما جعل حركة النهضة تتعثر، وبالتالى حركة الترجمة تكاد تتوقف.

لقد كان من الشروط التى وضعها محمد على لكل مبعوث مصرى إلى أوربا أن يترجم كتاباً فى مجال تخصصه، وأن يكمل هذا العمل خلال البعثة أو عقب عودته منها. ولم يكن يسمح له بمغادرة القلعة حتى ينتهى من ترجمة

الكتاب مما كان يحرم المبعوث العائد من رؤية أهله بعد سنوات طويلة قضاها فى الغربة! لكن أحفاد محمد على لم يهتموا بشئ من ذلك، بل أن بعضهم وهو إسماعيل باشا الذى رفع شعار جعل مصر قطعة من أوربا لم يفهم من النهضة الأوربية إلا القشور والكماليات المتمثلة فى إنشاء دار أوبرا، أو إحياء الصالونات وإقامة الحفلات التظاهرية التى لا تسهم بشئ فى تقدم المجتمع.

ومع بداية القرن العشرين أخذت الترجمة إلى اللغة العربية تسير فى أتجاه خاطئ. فبعد أن كانت فى بدايتها متجهة إلى نقل المؤلفات العلمية التى تسهم مباشرة فى التقدم المادى المنشود، اتجهت إلى ترجمة المؤلفات الأدبية والفلسفية ذات الطابع العام، ومالبثت بيروت أن تفوقت فى هذا الجانب، حتى على القاهرة. ومازال هذا الوضع مستمرا حتى اليوم.

وهكذا نصل إلى عوامل القصور التى تعوق حركة الترجمة فى العالم العربى عن أن تصبح عاملاً من عوامل النهضة، والتقدم الحضارى المنشود:

١- غلبة الكتب الأدبية على الكتب العلمية والتكنولوجية.

٢- عدم مسايرة أحدث ما يظهر فى العالم من مؤلفات.

٣- ترك عملية الترجمة (كاختيار وتنفيذ) لمزاج الأفراد، ورغبة الناشرين.

٤- تدنى مكافأة المترجمين، وعدم الأعتراف من المجتمع بمدى الجهد والارهاق الذى يبذلونه.

٥- عدم التواصل بين أنحاء الوطن العربى، فالكتاب الواحد قد يترجم فى بلدين أو أكثر.

وذلك بالإضافة إلى عدد آخر من العيوب الفنية التى تصحب عملية الترجمة، ومن أهمها عدم التعريف الكافى بقيمة الكتاب المترجم، ولا بمؤلفه، ولا ببيان مكانه بين مؤلفات صاحبه، وكذلك ترجمة الطبعة الأولى من كتاب

قد يكون طبع عدة مرات وخضع لمراحل من التعديل والتنقيح، ومنها - أحيانا عدم ذكر اللغة المنقول منها الكتاب المترجم مع الأكتفاء أحيانا بعبارة (نقله إلى العربية، أو تعريب فلان) ومنها التدخل أحيانا فى تغيير عنوان الكتاب الأصلى بإعطائه عنواناً آخر ذا بريق صحفى، وعدم إلحاق الفهارس التوضيحية للكتاب المترجم، والتعريف بما ورد فيه من أعلام وأماكن.

وفى تصورى أن الخروج بالترجمة من واقعها الحالى يتضمن ضرورة الإجابة الحاسمة على الأسئلة الخمسة التالية:

١- من يختار الترجمة؟

٢- ما الذى نعطيه الأولوية فى الترجمة؟

٣- من الذى يقوم بالترجمة؟

٤- كيف تتم الترجمة؟

٥- ماذا بعد الترجمة؟

وبالنسبة للسؤال الأول: (من يختار الترجمة؟) يمكن الاستفادة من تجربة محمد على التى قامت على تكليف كل مبعوث عربى إلى أوربا باختيار مجموعة كتب هامة فى مجاله، وتكليفه بالطبع بترجمة واحد أو أكثر منها. ومن ناحيه أخرى فلابد من تكوين لجان من كبار الخبراء والمثقفين بالثقافة الغربية بتحديد أهم الكتب التى يحتاجها العالم العربى فى نهضته الحالية.

أما السؤال الثانى: (ما الذى نعطيه الأولوية فى الترجمة؟) فلاشك فى أن العالم العربى والإسلامى بحاجة إلى ترجمة العلوم الحديثة والتكنولوجيا التى هى عماد التقدم المادى فى عالم اليوم. وهنا لا ينبغى أن يظل الحال كما هو عليه بالنسبة لتدريس الطب أو الرياضيات أو الفيزياء باللغات الأجنبية بينما فى الإمكان نقلها إلى اللغة العربية لكن هذا لا يمنع على الأطلاق من ترجمة

المؤلفات الأدبية الرقيقة المستوى، والوقوف على الأتجاهات الفنية التى تسود العالم بشرط ألا نجعلها تستحوذ على الأهتمام الأول كما هو واقع حالياً. ومن الأمور الغائبة في مجال الترجمة عدم الاهتمام بترجمة دوائر المعارف المعترف بها عالمياً كالموسوعة البريطانية، أو الفرنسية، وكذلك دوائر المعارف المتخصصة. إن نقل دوائر المعارف هذه إلى اللغة العربية سوف يكون لها من الآثار التعليمية والثقافية ما يحقق نهضة حقيقية على مستوى الأفراد والمجتمعات. ومما هو مقرر أن دوائر المعارف عبارة عن كنوز مفتوحة للمعرفة يتزود منها كل من يريد، وفي أى وقت، وبأقل تكلفه مع ضمان تزويده بمعلومات حقيقية عن الشئ الذى يريد الأستفسار عنه، أو الأستزادة منه.

وبالنسبة إلى السؤال الثالث: (من الذى يقوم بالترجمة؟) تبرز أمامنا على الفور مشكلة الإعداد اللغوى للمترجم العربى. ويكفى أن أذكر هنا أن أحد مندوبى البلاد العربية فى الأمم المتحدة لاحظ أن الزمن الذى تستغرقه الترجمة الفورية إلى العربية يصل إلى ضعف الزمن الذى تستغرقه الترجمة لأية لغة أخرى. وهذا يدل على ضعف المترجم العربى حتى على هذا المستوى العالمى. وبالنسبة للترجمة المكتوبة فنحن نعانى نقصاً شديداً فى عدد المترجمين الأكفاء. والبعض يرىأن مثل هؤلاء لايتجاوز عشرة على مستوى العالم العربى كله.

إن الترجمة تتطلب تعليماً لغوياً وتدريباً مستمراً وإعداداً علمياً وثقافياً واسعاً، بالأضافة إلى أنها تعتبر ميلاً خاصاً لدى بعض الأفراد المؤهلين لذلك. ولذلك ينبغى الإهتمام بتدريس اللغات الأجنبية، والعمل على اختيار المتفوقين فيها لإعدادهم لهذه المهمة القومية البالغة الأهمية. وسوف يكون من الأفضل

دائما أن يكلف الشخص المتخصص فى مجال علمى معين بترجمة المؤلفات الأجنبية المتعلقة به.

أما السؤال الرابع: (كيف تتم الترجمة؟) فيمكن الإجابة عنه بتفصيل أكبر عن طريق تجنب الأخطاء التى سبقت الإشارة إليها، مع الاستعانة بالنماذج الجيدة التى تم بالفعل نقلها وترجمتها إلى اللغة العربية والتى قام بها أمثال فتحى باشا زغلول، عادل زعيتر، أحمد لطفى السيد...ألخ.

وأخيراً نصل إلى السؤال الخامس: (ماذا بعد الترجمة؟) فنقول: ينبغى نشر هذه المؤلفات على مستوى واسع، ثم القيام بعمل فهارس تحليلية لها، وكذلك متابعتها بحركة نقدية واعية حتى يتبين باستمرار مدى إفادتها للثقافة العربية من عدمها.

وعلينا دائما آلا يغيب عن أذهننا أن الترجمة ليست هدفا نهائيا، وإنما هى وسيلة ضرورية لدفع وتشجيع عملية التأليف. وقد ثبت فى كل مراحلها أنها وسيلة فعالة فى هذا الصدد.

وأخيراً فإذا كان العالم العربى محتاجاً اليوم إلى ترجمة العلم والتكنولوجيا، فإنه فى المقابل من ذلك قادر على أن يقدم للعالم الكثير من إنتاجه الدينى والثقافى. وليس يعنى هذا أن يقوم هو بترجمة إنتاجه إلى العالم، وإنما عليه أن يعرف به، وأن يدل المترجمين الغربيين عليه، وأن يجزل لهم المكافآة ما أمكن، وأن يغرى دور النشر الغربية للمساعدة فى هذا العمل.. فإنه بذلك يكون قد أسهم بدور فعال فى النهضة الحضارية المعاصرة، وبطريق غير مباشر، يكون قد حسن من صورته التى تتعرض فى كل يوم للكثير من ضروب التشويه، وعرض على العالم حقيقته التى يجرى الهجوم عليها من كل جانب.